

« الجوار الأبيض » زمن الحرارة

بقلم محمد الدين محمد

ثم يأتي المظهر الفني بعد ذلك ، وهذا بالطبع ايحاء خاطيء ، فهل يمكن فصل الجسد البشري عن الرمة الداخلية ، بشرط ان يبقى الانسان حيا .. ؟!

ان الصلة بين المظهر والمحتوى في العمل الفني اكثر دقة وارتباطا بين الجسد الانساني والاعضاء التي يحمل ، وهاهنا معادلة وضعت في الاساس لبيان اهمية المظهر الذي هو احتوائي في الحقيقة ، ثم هو يعد ايضا بنية العمل من حيث الفنية والجمالية ..
أ - العالم

« كانت المدينة موسا عجوزا ذات وجه شاحب متعب لا يعترف الا بالبتسام » « ساقنتك .. ذلك السيف قديم وله ضحية في كل ليلة . قلت : انه كمديتني » « غرفة الرجل المتعب بلا ضوء ، صامتة ، سوداء ، علبة صغيرة من الحجر الرطب .. اعود اليها بلا حنين .. » « اني اعيش في هذا القبو .. العالم يجثم فوقني .. اني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة .. »

يعرف الكاتب جيدا كيف يستخدم اللغة لاثارة القاريء الى اقصى حد . ولكن هذه الطريقة التأثيرية القوية المفعول ، تؤخر الى حشد بعيد فرصة اكتشاف الجانب الانساني الخير ، والمناقض لهذا الجانب الذي عرض وحده ، وابرز خلال حشد من التعبيرات الاسيانية الفاضلة المتفجرة كمدا .. ! صحیح ، لقد برزت بعض الصور الدالة على تطور المفاهيم - بشكل متأخر - « ربما عثرت اثناء طوافي على مدينتي التي احلم دوما . بإمكان وجودها .. مدينة من نوع جديد غريب .. مدينة شنتقت الجوع والكابة والصحج .. » « سأرحل فسي يوم لا بد من مقدمة .. وسأترك خلفي مدينتي المكتظله بالجيف المتحركة .. »

ولكن هذا التطور الاخلاقي يبقى حتى النهاية فرح الرومانتيكي وامله . انه لا يمنح عطاء اراديا ، بل هو هروبي اكثر منه فاعلا ، وها هنا بالذات تقع المأساة الفردية للفنان ..

اي عالم هو هذا الذي لا يعطسي للفرد الا اليؤس والعذاب والمرض والوحدة والمذلة والخبت والهوان ؟ اي عالم هذا الذي ينسي الطفولة ويرفض البراءة والاخلاق ، ويعطي للثروة حق السيادة والفعل والحكم ، بل وحق القتل ؟

اذن يكون الجواب ضد هذا العالم : « ساهدم العامل .. » !! هذا الجواب المطروح لا يعني ان البطل يقاوم الالة ، بقدر ما يعني انه يقاوم اخلاق الالة . الاخلاق المستوردة التي حجبت اصلتنا العربية منذ المجتمع الاول . في تاريخنا فترة بلغت من الديمقراطية والظهر ، الى درجة ان الحاكم كان يقيل في ظل شجرة بين رعيته ، والى درجة ان حاكما اخر ضرب على ام راسه لانه لم يكن ديموقراطيا كفاية .. هذا الجانب من تاريخنا الذي اعطى العالم اشعاعا انسانيا جديدا ، ومفهوما اشتراكيا بين الانسان والسلطة والاخر ، ينقضه ، وينقض النتائج المترتبة عليه ، هذا التحول الى اخلاقية الالة التي لا تصرف الوفاء او الكرم او الديمقراطية التي عرفها المجتمع العربي الاسلامي قبل ذلك . اذن ، انها نكسة من الداخل ، فسي حين تتغير

تطرح هذه المجموعة النادرة سؤالا فنيا هاما : الى اي حد يمكن فهم الواقع بطريق رؤية غير موضوعية ، ومبينة على وهم التجربة وتكثيف الاحساس ؟

على ان المشكلة في النهاية تبقى مشكلة التعبير الخصوصي عند الكاتب ، ولا يمكن طرح جواب عام .. فكمية الوهم المغطاة كبديل للعالم وللتجربة الخارجية ، تتفاوت بالنسبة لكل كاتب يتخذ هذا الخط التعبيري ، وبالنسبة لاقاصيص زكريا تامر ، تتجاوز الكمية المقدر المعقول لذلك .. ولكن .. كم هو في الحقيقة ، المقدر المعقول ، وكيف يضبط ؟

هذه مشكلة اخرى لا يجب عليها الا بطريقة ذاتية للغاية ، فالهمم هو كيفية التوصيل . كيفية تحوير الواقع بطريقة لا تمسخه ولا تحيله وهما كاملا ..

ان العالم عند زكريا تامر ، ليس هو المعارف عليه . ان ذلك يتجاوز بشكل ما ، ليمسك بعالم اخر ، زبقي في الظاهر ، ومنخضم ضبابا . اما في الباطن فيظل هو هو ، عالما التمس الذي يبلونسا بامراضه وفقره ومصائبه ..

اذن لم تكن الوسيلة لظهور بؤس العالم احالة من خارج الى داخل ، اي انتقالا من الواقع الى الشعور ، بقدر ما كانت طسمة للواقع الخارجي ، واغلاقا له ، للقفز من مجرد التعرف الى المظن ، الذي هو المسلك الطبيعي لكتاب القصة الاخرين ، الى الهزة الشعورية (1) والاخلاقية عن طريق - الى - داخل - ..

غير التعرف عليه ، ليس هو المجهول .. ولكن .. المصوب فسي قالب اخر ، ولذلك امكن اكتشاف عشرات الرموز في اقصيص زكريا ، بدون ان تكسر الرموز حدة الوهم المعطى ، فالسكين رمز ، والقمر رمز ، والجنس رمز ، بل ان رؤية العالم تكاد ان تفصح عن رؤية كاملة للرموز .. ! وكثرة الرموز الصغيرة تعتبر تكثيفا لحدة الازمة التي يعانيتها جيل باكملة من خلال الجمود الضار للعادة ، والاسر المجتمعي والاخلاق ..

اذن . هو الشكل فحسب ، ما يعطي لاقاصيص هذه المجموعة سمة فائمة ، على حين يظل الداخل مربوطا اليها والى اوصابنسا ، وسعادتنا الصغيرة باكثر من الف رباط . وسوف يصبح هذا الغياب الظاهري للواقع ، طريقة جديدة من عشرات الطرق لبرازه وتاكيد ، فمما لا يحتمل الشك ان قصصنا في عشرات السنوات الماضية لم تكن - بتاثير من ترجمة الادب الروسي ، والفهم الخاطيء للواقسح - الا عرضا خارجيا للفقر والفقر .. لدرجة اننا صرنا مالكين لتيار من هذه القصص يمكن ان يسمى بنيار القصة المحولة .

واذن ، لا بد من اجتياز المظهر - واجتيازه لا يعني اطراحه - للنفاذ الى ما هو حقيقي وثوري واخلاقي .. وهذه المسألة قد تعني بان اهتمام الكاتب يجب ان يوجه الى القضية الاخلاقية قبل كل شيء ،

(1) امكن لزكريا تامر ان يعطينا وهم الشعر ايضا ، بقدر ما اعطانا الالم في المشاركة ..

المظاهر الى احسن ..

وهذه آفة أحدثتها المفاهيم السطحية للحضارة الأوروبية . فخلال مائة السنة الماضية ، كانت قشور أوروبا تعبر البحر الأبيض ، لتسكن أرضنا ، وكنا نوافق على ذلك ، لأن القشور أعطتنا بهجة النوائج ، ولم تصحبها مرارة التفكير والاستنتاج والفعل .. كنا نستورد الكهرباء ، والراديو ، والهاتف ، والتلفزيون والسينما ورقصة الفالس ، ودبوان كيتس وبودلير ، وغنائيات شوپرت وشومان ، ولم تكن لنندرك أن تحويل نتائج الحضارة الأوروبية الى عصرنا التخلف سوف يعطينا مرارة اليأس والاحساس بالهزيمة ، إذ كنا نتصور ان الدافع للتطور سوف يوجد بعد الاحتكاك بالنتائج ..

وكان هذا خطأ ضخما جدا ، إذ زادت اعوام الفرقة بيننا وبين الغرب ، لاننا بدأنا من نهاياتهم ، ولم نمطق الدافع الى التطور والتقدم ..

وكان اخرى بنا ان نقاوم التخلف اولا في أرضنا ، وان نقهر اوثاننا وان نحارب القيم التي عشنا في قلبها آلاف من السنوات . كان اخرى بنا ان ننقل التفكير البدائي الذي خلقه فينا المجتمع الزراعي ، الى تفكير راق ، بتطوير الأرض الزراعية الى مصانع . كان ذلك اجدى واخرى واسلم . ولكن الحكام كانوا من طينة اخرى ، ترى غير ما نرى ، لان صلحها الدائم مع الاحتلال والاحتكار الداخلي كان يؤخر الى مدى بعيد ، فرصتنا في العمل لصالح وطننا ، ونشأت او انشئت فلسفات جديدة غرضها الاساسي هو تصغيرنا وتجميدنا وتثبيتنا في القديم والتخلف والعاظمي ..

وهكذا انتقلت اليها اوراق الآلة ، بدون ان ينتقل الفهم الشامل للحضارة التي انبثقت الآلة عنها ، ولم تكن الآلة سببا في ايجادها .. وفوجئنا باخلاق جديدة تناقض الشرف الشرقي المشع الذي ينبع من براءتنا ..

قشور الحضارة التي تحولت من الغرب اصبحت الهية الرجل العادي ، في حين اصبحت بالنسبة للمثقف مشنقته ومقصلته ، وهكذا اظهر التوتور والالم في وجه المثقف العربي ازاء هذه الوجهة الجارفة من مظاهر الحضارة الأوروبية ، وكان هناك تياران : الاخذ عن الغرب . والعزلة ..

ووقمت فكرة الاخذ عن الغرب في محذور خطر ، وذلك هو عدم تقدير الزمن والتاريخ في نقل التراث الغربي ، إذ ترجمت مؤلفات في الفلسفة الوجودية وفي الماركسية والبرجماتية ، بدعوى حض الفكر العربي على التفكير ، والنتيجة بالطبع هي فقدان الإدراك الاساسي في سبب نشوء هذه الفلسفات وارتباطها بالتاريخ الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للانسان في الغرب ، ولذلك لاحظنا انكفاء سريعا عليها ، ثم تكوصا عنها سريعا ايضا ، لأن الوجه البراق الذي اغرانا ، افصح عن انياب مهلكة ..

اما العزلة ، فان لم تكن وجها غربيا ممضا ، فهي على الاقل وجه ذاتي وصريح ، وهكذا كان على (الجواد الأبيض) ان يرفض العالم ويرفض التقدم ، وان يسكن في الوحدة ، ومجرد السخرية من الانسان والوعي والنظور ..

انه سوف « يهدم المعامل » .. هكذا ...

ب - الكائنات

(ابو احمد) الرجل الموافق ، الذي لا تعني [نعم] بالنسبة له الا [نعم] الحصول ، و [لا] هي رفض الحصول ، واذن فالعالم كله بالنسبة لتركيا تامر هو عالم هذه الكائنات التي ترفض التعاون الا لمصلحة خاصة بها ، لمصلحة مادية في الغالب ، هذا العالم الغريب الذي ينعث رجلا مقولا تزج سيجارته بانه حشاش اصلي . العالم الذي يصيح « ما بالك متوقفا عن العمل ؟ اشتغل اشتغل .. » فيقدر انتاجك نطيق خبزك . اما الحرية الفردية التي يتبناها الكاتب ، وهي حرية الرفض ، وحرية التشرد فلا تجد مكانا في العالم اساسه هو الصناعة والآلة ، واذن : ما دامت حرية فوضوتي ضائعة ، فانا ارفض

الآلة والصناعة - السبب - واذهب لاتبول فوق اوراق مهمة ..

الاخر عند ذكرها تامر له وجهان ، احدهما البسيط الساذج الذي يحترم العلاقة بين الشاذ والطبيعي ، والثاني هو الاخر الذي يرفض اي علاقة لا تجر الى فائدة مادية . الاول هو تافول الكاتب ، والثاني عذابه . وفي عذابه بالذات يكمن الجحيم الذي نطالع في « الجواد الأبيض » ..

« انها امرأة فقيرة جميلة وديعة ملقاة الان على سرير رجل غريب ، يسحق جسدها العاري بينما تفكر هي بطفها الذي ينتظر ، وبالنفود التي ستكون ملكا لها بعد قليل » « تفق السيارة بحذاء الرصيف يفتح بابها وتبتلع المرأة العاهرة التي تفضل اصحاب السيارات على المشاة امثالي .. »

ها هو عالم يصبح فيه حتى العمر موقوفا على الاثرياء .. اذن ، ماذا يفعل الرجل الفقير الذي لا يستطيع حتى ان يبيع كبريائه وشرفه ؟ « احيانا اود ان يتحول كل الناس الى كلاب ، لا تتوقف لحظسة عن النباح .. » هذا الاخر هو الوحش ، واحساس الكاتب هو الاحساس بكونه الفريسة ، بانه اللحم النيء الطري وسط مجموعة من الكلاب وهانها يخالف الرمز ، رمزا اخر لفرانز كافكا في خاتمة روايته [المحاكمة] « ومات .. كأنه كلب » . التناقض موجود في طبيعة هذا الحيوان ، هنا على انه فريسة ، وهناك كمفترس ، ولكن رموز التناظر أعلى من رمز الافتراق ، فالاحساس العام للانسان بازياء العالم هو احساس بكونه قطعة اللحم وسط وحوش .

صاحب العمل مفترس . الام مفترسة . الاب مفترس . صاحب

المقهى مفترس .. بل ان رمز (لوجي) قرد الغابات ، هو رمز للانسان الجحيس المأسور الذي قذف به من اعماق مملكته الى دنيا اباطرتها العظام ، آدميون يتزعون احشائه ، ويملاون كيسه الجلدي قشا ، ثم يضعونه في الناحف والابهاء . نفس المحتوى الاخلاقي لقصيدة ت . س . اليوت : الرجال الجوف ، والحقيقة ان هذا المفهوم ليس شرقيا اصيلا ، بل استورد في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، واصبح انسا غير شرعي لنا ، لا يحمل ملامحنا ، ولا اخلاقنا ، فالمجتمع الأوروبي الذي حطمته اخلاق الآلة وبترت عنه عواطفه واحلامه ، يلقي مر النقد والهجوم من شبان يلاحظون هذا الافتراق الخطير بين مثالية الانسان ، ومناقب الآلة ، مما دعا (كولون ويلسون) في مؤلفاته الثلاثة الى محاولة طرح جواب لهذا الاشكال الضخم ، على ان يكون جوابا يعقد الصلح مع قلب الانسان ، وليس عقله ، وكانت النتيجة ان تقارب ويلسون مع الجواب المسيحي الذي طرحه اليوت ، ولهذا السبب بالذات يعتقد ويلسون ان اليوت هو المثقف الوحيد الذي يستاهل الاحترام .

في مؤلفه الثالث *The Stature of Man* يستند ويلسون الى كتابين هاميين احدهما هو [الحشد المتوحد] لدافيد رايزمان ، والاخر هو [رجل المنظمة] لويليام هويت ، ليقرر ان هناك ثلاثة نماذج الاول كان وفقا على مجتمعات العصور الوسطى (١) ، الانموذج الثاني فيعبر عنه المفامر احسن تعبير ، ذلك الرجل الذي يرفض العلاقات الاجتماعية الفاقدة المعنى ، ويذهب ، مشمس (هاكلبري فين) على طوق خشبي ، سابحا على طول الميسيسي ، ليكتشف نيو اورليانز ، وفي الادب الأمريكي نماذج عديدة مثل تورو . امرسون . وتيمان دانا . يو (٢) . اما المقاد بالآخرين ، فهو الذي يهتم بما يقسول الجبران عنه ، لا بما يطلب هو بذاته ، وهو الانموذج الذي عقد اتفاقا مع العالم ، ورضي بهذا الصلح واستكان له ..

وهكذا نلاحظ ان هذه النماذج التي تحتشد في قصص ذكرها تامر تقارب هذه النماذج الى حد بعيد ، وهي النماذج التي يعلن عنها الادب الأوروبي الحديث لتكون ايماء لفقدان الغرب لقيمه الروحية ولان هذه النظرة مستوردة ، لم يستطع ذكرها ان يعترف الى الدين ،

(١) وهو يقابل الشخصية الموجودة في شرقنا العربي بعامة ..

Colin Wilson « The Stature of Man »

(٢) ص ٧

لان لديه مبرراته ، ولكنه انحرف الى العزلة .. وهي لا تفيد شيئا في ارض ساذجة ، رجالها اذكياء وساذجون ، ونساؤها محجبات وساذجات ، وقوانينها باظنة وساذجة ، وعدلها رهيب وساذج .. ولهذا احسبني اكتشف ظاهرة اصيلة في هذه المجموعة ، فالقصص التي قاومت اخلاق الالة ووضعتها تخالف من حيث المستوى الفني والاخلاقي ، القصص الأخرى التي طرحت مشكلة فقر العربي وبؤسه . هناك زيف واضح ، ومحاولة لخلق مشكلة غير موجودة ، وهنا امانة وصدق وحقيقة . ان الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية ، وهو اقوى البلاد العربية امكانيات ومقدرة وثروة ، لا يعد بلدا صناعيا للان ، ولم تصبح الالة فيه ، كما هي في الغرب دستورا ونبراسا ، فما زالت الزراعة هي الملامح الرئيسية ، بالرغم من المصانع المتعددة التي تقام في كل يوم ، وما زال الفلاحون ، القوة الرئيسية في البلاد .. فما بالنا بالاقليم الشمالي والاردن ولبنان والعراق .!؟

نصف الانسان المروض لا يحمل وجهنا ، لانه نتاج حضارة اخرى، والنصف الاخر هو مشكلتنا الاساسية في الشرق العربي ، لانه نحن حقيقة .. وهاهنا عيب اخر من عيوب الحضارة الغربية التي زحفت الينا بوضعية القلق الوجودي والسأم والفئشان ، والمصطلحات الأخرى التي يستغرب حتى المثقف العربي وجودها ..

ان القلق الذي يعرضه زكريا هو قلق الحضارة الميكانيكية التي تتعذب من اجل الحصول على دراهم روحية وسط ازلي الالة وتجاهلها التام للانسان ، وهو يختلف قطعا عن ذلك القلق الميتافيزيقي الذي احس به باسكال وفاليري وكافكا وكامو ، اي ذلك القلق النابع من السؤال التجريدي : لماذا انا هنا .. ولست هناك ؟

هذا القلق الذي تشره رؤية الغرابة والمصادفة والاستحالة ..

ان قلق زكريا منقول عن قلق كونستانتان جيورجيو وقلق البيوت : أي قلق البحث عن روحانية جديدة ، وليس مصادفة ان تجد هذه الدعوة عزوفا من الشبان العربي وان وجدت ترحيبا كاملا من الشباب الالمانى والامريكي والانكليزي ، لان الاحساس به في الشرق العربي ليس معاشا على الاطلاق ، فالحرب هناك قد جددت الى حد بعيد ، هذا الططب العادل بوجود ابراز القوى الروحية لمواجهة الطفنان المادي الهائل ، ووجوب الوقوف ازاء الوحشية موقفا عاما وشاملا للاجهاز على شرائع الغابات وتنمية هذا الحس الانساني بالخير والسلام ، وكان التحول الغربي الى (الاوتوميشان) - هذه الحركة التي تبغي عزل الانسان وابقائه فاقداء لحيويته وقواه - يسهم بتصيب كبير فسي تدعيم الحركة الروحية وتقويتها ..

اما هنا ، في الشرق العربي ، فلم تكن الحرب تواجهنا بالفظاعة التي واجهت بها الغرب ، ولم تصنع البلاد بعد ، هذا التصنيع الهائل الذي يقفنا روحيتنا ..

اذن، بعض كائنات زكريا تامر تعيش قلق الحضارة الأوروبية الميكانيكية ولا تعيش قلق الوجود الذي يعاني منه جيلنا العربي الراهن .. واما الوجه الاخر للكائنات التي عرضها لنا (الجواد الابيض) فهي الوجه الذي نتعرف عليه بسرعة ، وبدون لحظة تأمل الى درجة ان تتابع الوجوه في الاقاصيص المقدمة ، يحيلنا الى تتابع وجودي ، حقيقي ومعاش في ارضنا : اي ان التناقض بين الحقيقة والمثال بارز الى حد يبعث الدهشة بالرغم من الخباء الرمزي الظاهر ..

انه جيل يعاني فقرا عاطفيا ، ونضبا ذهنيا ، وكراما تقليديا ، ومذلة معيشية مريبة ، بل ان تاريخه وتقاليدته تسهم في فصل اماله عن جسده وارادته لتظل على الدوام ، امالا مستحيلة ولا طائل وراءها : العربية .. انها خرافة - العيش الكريم .. استحالة - الاشتراكية ... انها وهم ..

وهكذا كان هذا الجيل يسير في الطريق الشاق مجررا فسي قديمه سلاسل العبودية التي تسلمها من اجداده وابائه ، مطرق الرأس الى الارض ، ولا يملك التفاتنا الى عشرات الاشارات التي باماكنها ان تدله على الطريق : انه يعاني جهلا ومذلة حقيقية ، ولا شيء يمكن

ان يقهر ذلك الا الثورة . الا التمرد .. الا الحرية ..

ها هو الانسان العربي الذي استطاعت هذه المجموعة ان تدل عليه ، وهو انسان النعاسة الذي يعاني الان ، اوصاب الفين من السنسوات جائزة فوق صدره الطري ، ومنشبة اظفارها في عنقه ...

ج - الاخلاق والقيم والانهيار

يعلن زكريا في [النهر ميت] : « اذاره نيسان . مارس .. الثلاثاء . الاربعا . الخميس متى يتوقف هذا الرقص الجنون ؟ ساوفق يوما في حفرة ، ويظل النهر حيا .. ليتني نهر .. » ليس هذا رغبة بالاتحاد في الطبيعة ، انه افصح لاعفوى عن مطلب الخلود (1) .. اذ ، لماذا نموت في الحقيقة ؟ . والغريب ان هذه الحياة التي عاشت وفي فمها مرارة البحث عن الخبز والعيش النظيف ، وذائق الم الجوع والتشرد والاحساس بالتطفل على مخلوقات تركب الكاديلاك ، وتاكل الفراخ المحمرة ، وتشرب السكوتش ويسكي .. هذه الحياة السوداء تطالب بالخلود !! لانها بالرغم من بؤس وجودها ، الا انها ترفض ان تموت وتخلي هذا العالم للاشجار والانهار الحية الخالدة . انها رغبة فينا ميتافيزيقية وعميقة ، لم يستطع الدين ان يطرح ازاها جوابا منطقيا ومعقولا ، وما استطاع العلم - حتى الان - ان يجد لها حلا صائبا ..

في هذه القصة يحاور زكريا قضية لمسها الادب الاوروبي الميتافيزيقي وهو الاعلان عن هذا الاصرار الاخلاقي فينا برفض الطبيعي والمعاش والانتاج « لا زوجة لي .. لا اطفال .. لا اصدقاء .. لا مسرات . الارض مقبرة كبيرة . النهر قد يكون تصعا مثلي .. » وهذه الوحدة التي بدون اسم ، سوف نتجح - لا لان هذا السلوك موصل دائما - في كشف قيم جديدة للحياة « ساشترى الان خبزا ولحما وقينة نيبد .. الحياة جميلة » لان هذا الانقسام الذي حدث بين الطبيعة وبين الداخل، لم يطرح السؤال التقليدي : لماذا انا فقير ؟ بل طرح سؤالا اشد عمقا: لماذا انا موجود ؟!

اما (طارق) الذي يستعين به زكريا في خاتمة (النهر ميت) ، فيعتبر جوابا للسؤال السابق : « ليس لك اية مدينة يا طارق .. احترقت السفن .. »

نعم .. ان عليك اذن ما دمت لم تملك الميلاد ، ولا تملك الوفاة ان تسير في المجهول ، وسط البراري العدوة ، بين البشر الساخطين عليك وعلى الدين الذي تحمل .. ان عليك اما ان تنظفيء ، واما ان تقاوم ارضا تمور النيران فيها حقدا وكرها لك . ولكن [طارق] التاريخ اخضع الارض الثائرة ، في حين ان طارقا المعاصر يتعذب في غربة هذه الارض هلما حتى الموت ..

لقد كانت الاستعانة بالتاريخ عنصرا ناجحا جدا في اضافة الواقع الى التجريد لاختفاء مسحة من النضوع ، والانفتاح على هذا القلب المطلق ، لقد احرق طارق سفنه وقال لجنوده : العدو امامكم ، والبحر خلفكم ! .. اي ليس هناك خيار ، ولا مفر من التقدم ، وضرب العدو والتوغل في عالم اسبانيا الجديدة .

اما طارق القصة ، فقد احترقت سفنه منذ ميلاده ، وليس عليه الا ان يتوغل في العالم ، غير مالك في قبضة يده سوى موته ، بل ان بطولة طارق التاريخ لا يعرفها طارق الحديث ، لان الاول احرق سفنه بيديه ، اما الاخر فقد ولد واكتشف بعد ذلك ان سفنه قد احترقت منذ ازمة بعيدة « انا نادم يا صديقي لاني حملت قبوري فسي وقت جد مبكر .. » واذن : ليس الا التقدم . وسوف تعرف بعد ذلك ان زكريا يرفض الانتحار ، ويهرب من الموت ويخشاه تماما ..

القدم الى العالم في مثل الظروف التي يعاني منها جيلنا العربي الراهن ، تخلق كراهية الاخرين ، والعزلة ، والرغبة في التدمير ،

(1) حاولت ان اتجنب المعطى الاولى للفترة ، وهو مراقبة التكرار والالية والعادة ، لان الفترة بكاملها مذكورة - بالنص - فسي رواية (الغريب) لالبيير كامو ..

يتمسك بالحركات التي تدعي الحرية الفردية وتعلن عنها ، فها هنا بالذات يمكن للشباب ان يجد المبررات لكل ما يفعل ، وكان الجواب حاضرا : لماذا انت لا اخلاقي ؟

لانني وجودي او سيربالي او .. او ..

واصيب الجيل كله بخيبة امل ، مرجعها الى اليأس الحيائي الذي يعيشه ! فمطالبه محددة تماما : الحرية والاشتراكية ، وهما معكوس الواقع في معظم بلدان الشرق العربي الدكتاتورية والاقطاعية ..

ولكن الامل عند زكريا تامر ، يفصح عن رغبة عميقة في مصالحة العالم مرة اخرى « سآزرع الامل في دمي ، وانتظر بلهفة ، الشمس السعيدة التي لا بد ان تشرق في يوم ما .. وستهب لكل قلب بهجة دائمة حقيقية .. وعندئذ لن ينبح فسي قلبي اي احساس حاقد لثيم اسود .. » .. بيد انه امل يفصح عن توق ومغامرة ، ولا يفصح عن رؤية وفعل ..

د - حكمة الرجل الآخر ...

(الهو) باستمرار ، حلم الراوي وامله ، انه ليس ابا احمد او سلمان او الحاج فضل . انه الرغبة . المغامرة .. التوق الى الجهول مجسدا في رجل او اثني او شمبانزي .

« انا في النهار بائع اقمشة وفي الليل بحار مفاخر .. »

واحيانا يكون الآخر سيد الحكمة : الرجل الذي يفهم كل شيء ويدرك كل شيء : « عندما تكون جيوبك مليئة بالنقود .. تصيح المدينة ملكا لك . » « اسكت .. متى اصبحت تفهم في السياسة ؟ - ليننا نستطيع ان نحيا بدون خبز - كل النساء مومسات . » « احن راسك اذا اردت ان تعيش سعيدا ، فالراس المرفوع يشقي حامله »

ان الآخر هو توق كاذب ، يتمنى الكاتب ان يكون : الآخر الذي نراه ولا نشعر به من داخل السحنة التي تظهر لنا فرحها وابتناسها . هذا النموذج الواثق من نفسه والذي يلقي بالحكمة كانه آله ، هو من بطل الاقاصيص ، بيد ان الامنية التي يود ان يحصل عليها الكاتب ممثلة في حكمة الآخر ، تتشابه الى درجة بعيدة مع احلامه هو ، وها هنا يختلط الآخر بزكريا تامر ، ويصيحان عجينة واحدة .. لدرجة ان تعبيرات الآخر تسقط في اكتسابه مع تعبيرات الفنان ، فتتقصد الاقاصيص عنصر التوازن الذي كان يمكن خلقه بتضارح فكرتين او رغبتين متناقضتين تماما ، لكل منهما اغراضها ومنطقها . كان يمكن لابي احمد ان يكون العاقل او الاتفاقى ازاء رغبة بطل القصة فسي همم العامل ، وهدم الحضارة ، ولكنه يشاقق سريعا ليحمل الاخلاص فسي صورة زجاجة عرق توزع على كل رجل يوميا ، لتنسل المذلة والهوان والفقر .

ان ذلك يعني ان كل شخصيات زكريا تامر تتكلم باسمه ، وتعلن عن حججه ، وتحمل اسلحته ، وذلك خطأ فني وقع فيه الكاتب ، وكانسي به غير مستطيع ان يقنع القارىء بمنطق الإبطل الغريب ، فاختر ان يسعف منطق البطل بموافقة الآخرين ، وينقله من الاستحالة الى الامكان . ان عنصر الموافقة على الهرب والسلوك القبيح والانزاهي والشذوذ ، متفق عليه من كائنات زكريا تامر جميعا ، فكانهم يفحصون عن مجتمع مكون كله من نسخ متكررة لبطل يتيم واحد ..

البطل معروض دائما من الداخل [الروي الاول] على حين يقنع زكريا بعرض اشارته من خارج الآخرين : اي ان هناك باستمرار ، تأملا داخليا ، من خلال الانا ، وعرضا خارجيا من خلال الآخر . اي ان اتفاقا قديم تم بين الانا والهو ، على ان يختص الانا بعرض انعكاس العالم في - داخل ، وعلى ان يعرض الهو العالم من - خارج ، وقد امكس لهذا العالم المنظور اليه مرة بالشعور ، وبالايعين مرة اخرى ، ان يقلت

- تنمة على الصفحة ٧٧ -

والشذوذ الاخلاقي ، وكافة المصائب التي نلاحظها في طوفان حياتنا . « قلت : انا احب كل التجارب الجديدة » « انا اكره جدي ، فلو زوج امي من رجل غني لما ذقت طعم الشقاء » « قد اكون شتمت جدي وشتمت بصرارة عالما لا املك فيه شيئا » « لينتي قطع من المدى المتوحشة المنفرسة في قلب مدينة لا تغطي اولادها سوى الجوع والتشرد والكآبة » « اني ساقول لزوجها بصراحة : العدالة فوق الاشخاص .. انست تمتعت بمباهج تلك المرأة طوال سنين .. والان حان دوري انا المعب لكي اعرف طعم اللذة والسعادة » « انا عامل مسكين لا ابتمس » « اتشى رائحة لحم العامل المحترق الذي تساقط عليه الحديد الناري المصهور المنذلق من البوتقة التي افلقت فجأة من الايدي التي تحملها .. تلك الرائحة هي العالم » « لا شيء في داخلي سوى بعض العناكب والقبور المهجورة » « فانا شاب احمق عديم الفائدة » « لماذا اعيش ما دام ليس هناك ما اعيش لاجله ولا فائدة مطلقا من وجودي .. لماذا لا انتحر(١) » كل هذه النصوص ، والكلمات المريضة الفاضية ، يعاني من واقمها جيلنا العربي ، لانه جيل المرارة . لانه الجيل الذي عرف الان فقط ما هو ماضيه .. لان ادراكنا لتاريخنا القديم لم يفتح في القرون الماضية بسبب الضغوط التي كانت تباشرها سلطة افسى وافظع من السلطات الموجودة .. واستطعنا فجأة ان نفتح كوة كبيرة على الماسي العديسة التي عاشها اجدادنا في ظل ظروف باهظة للغاية ..

لقد استمر الاحتلال العثماني لبلدنا مدة طويلة ، استطاع خلالها ان يمتص رحيقنا وامكانياتنا ومواردنا ، كما يسبل الرحيق عن القصب، واحتلت بريطانيا وفرنسا ارضنا بعد ترحيل تركيا ، واستمرت فسي عملية تدمير الشرق العربي اقتصاديا وحضاريا وفكريا وسياسيا وبعد ان استقلت بعض البلدان العربية التي بدأت فورا في اعادة بناء الامة العربية المنخوبة من الداخل ، فوجئنا بتاريخنا كله ينهار تحت اقدامنا ، عربانا ومكشوفنا : تاريخ التوسع الاسلامي . تاريخ المهازل العباسية . تاريخ الخلافة التركية المحتلة . تاريخ الصراعات الفكرية القديمة . تاريخ الاغتصابات السافلة التي سوف يذكرها ويوضحها قرن تال في مستقبلنا ، فما زالت الرغبة بالافصاح وحرية الكلام ، يقابلها التهديد بالموت والسجن والتشهير والتعذيب .. واملنا ان ياتي الوقت الذي تسود فيه حرية التعبير ، وحرية الاعتقاد ، ليقول الصامتون ما يعرفون عن حاضرنا ومامضينا ..

كانت فترة الاحتلال التي امضاها شرقنا العربي ، عاملا قويا فسي دفن مطالب العربي ، وساعدها في ذلك ، التقاليد القديمة التي ورثناها عن اسلافنا الاقربين - ولو كانت خلال الاسلام الحقيقية فينا ، لتعلمنا ان نشور ونضرب ونموت - اقول [خلال] ولا اقول الاسلام - فقد كان الاسلام الحديث منقسما الى اسلامين . اسلام القرآن ، واسلام العامة ، وكان الاخير - للاسف - هو السائد ، وما زال الايمان بالخرافة ورفض روح العلم والعقل والمنطق ، والتواكل ، وترك المصائر بيد الله والسلطة الحاكمة ، والتفني بالمذلة الحقيقية امام القدرة لئيبيل رضوان الله .. ما زال كل ذلك قائما حتى الان وكانت السلطة بمعاونة الاحتلال ، تموت طربا وسورورا لهذا الاتفاق الرائع الذي حل بينها وبين طلباتها ، وبين الناس ، فكانت تسهم بيث هذه التعاليم فسي قلوب العرب وتنشرها فسي كافة المجتمعات وبكافة الطرق .. واصبحت الظروف الحياتية للجيل العربي الراهن في منتهى الصعوبة نظرا لهذه التركة الشامخة الموحلة ، وتكررت النماذج في الوطن كله من العراق حتى مراکش ، واصيبت الاخلاق بالانهيار ، لدرجة ان الجيل الشاب اصبح يرفض اخلاقه القديمة والاخلاق الاوروبية معا ، وبدأ

(١) سوف نلاحظ فيما بعد ان هذه الرغبة بالانتحار هي رغبة كاذبة وملففة، وتماثل بالضبط بعض الكتاب الاعلانيين بالتوقف عن الكتابة لمدة معينة .. ثم تراجعوا .! ذلك ان الرغبة لم تكن جدية . ان التوقف عن الكتابة [كارنر ميلر] مثلا لا يعلن عن ذلك . انه ببساطة : يتوقف ...

الجواد الأبيض

— التتمة من الصفحة ٢٧ —

المجموعة من الوقوع في التكرار والاعادة .. (١)

هـ — التعبير

مع سيربالية العصور المعروضة ، وغموضها ، تفتتح بعض الرموز في طواغية ويسر ، فالسكين في (الاغنية الزرقاء الخشنة) هي الكراهية التي تخفي العلاقة المقطوعة بين الفنان والعالم ، حتى لو تخلى السكين عن رمزه واصبح بضاعة يساوم عليها بكوب شاي .. والسجائر تعني رباط الصداقة التي تهب المشاركة والعطف والايانس . والقريب ان هذه الرموز التفاؤلية يختص بها الجماد وليس البشر « اذا كنت تريد ان يكون الناس سعداء ، فوزع عليهم من سجايري »

يعتمد زكريا في قصة (القبو) على التداعي المعكوس ، اي ان الجملة تفجر تداعيا يناقض مفهوم الجملة الاولى : [« العالم كله كئيب » الرد .. « ما اجمل كلمة فخذ »] ليتني كنت غرابا « [وقد امكس لهذه الطريقة ان تخلق ميزانا في مخيلة القارئ يزن به العالم المحتمل والعالم الموجود . اما الاخلاقية فيتركها زكريا للقارئ ، وحسبه ان لعن العالم والوجود والحياة ..

اذ لا يمكن ان يصير الكاتب حياديا ، ان له نظرة خاصة يود ان يطبع الكون بها ، ولا مجال للقول بان الكاتب يفرض اخلاقيته على القارئ : انه يمنحه عطاء فوجيء به اذ على القارئ نفسه يقع عبء تحويل هذا العطاء الى اخلاقية خاصة ..

في [النجوم فوق الغابة] جملة وضاعة :

— لوجي .. (خذني الى غابة) ..

— سنهوب معا في احد الايام ..

انها تذكر بدعوة (يارك) الحارة والسكينة « خبثني في طائرة الى مراكش » (٢) وهي بالطبع عزوف نادر عن الضغوط ، ورغبة عنيفة بالحربة والهرب من عالم حقيقي وصلب ، وبلا احلام .. ولا يملك الطفل في قصة زكريا الا ان يحلم بالفرار العظيم ، على اثر سماعه جملة نادرة كهذه :

« الاشجار هناك طويلة جدا حتى ان رؤوسها تتحدث ليلا مع النجوم .. » ومن قديم كانت الرغبة في الرحيل امنية تملأ على الكاتب حسه ومشاعره . الرحيل التجريدي الذي اعلن عنه الرومانتيكيون ، وليس رحيل همنجواي الى كينيا ، او رحيل سومرست موم السى الريفيرا ، وباوند الى الساحل الايطالي المنهب بالشمس .. الرحيل الذي يعلن عنه (روبرت) وهو يموت في مسرحية اونييل [ما وراء الافق] « انها بداية حرة .. بداية رحلتي .. لقد كسبت لرحلتي حق الانطلاق وراء الافق .. »

الرحيل الذي اعلن عنه (كامو) في [وقفه وهران] ، والذي بهره الى درجة ان صور جزيرته في قالب مطلق : غدا .. تبحر السفن الى جزر بعيدة تغمرها الشمس .. انه سحر غامض وملح ، الى استنشاق المجهول : هذا الطعم البري العجيب ، وهو طعم حقيقي ايضا ، لا يمكن

(١) مفهوم البطل عند زكريا تامر ، يماثل الى حد بعيد مفهوم البطل في كتاب كولن ويلسون الثالث (ابعاد الانسان) : « فكرة البطل عن شخص يحتاج التوسع ، يحتاج حقلا اكبر لنشاطاته . انه من لا يستطيع ان يقنع بحالته الراهنة . الرجل الذي تصبح لديه فكرة الحربسة ، التقيض لحياته الحاضرة . واللابطل هو الرجل الذي يوافق ، الرجل الانسجامي .. » ص ٧٥

(٢) (ارض البشر) انطوان دوسانت اكرويري (مطبوعات الكاتب المصري المصري) .

للفنان ان يتخلى عنه ، والا اصيب بمرض النقل عن الواقع ، وبهتت رؤاه ...

ان القصة الاولى من هذه المجموعة (الاغنية الزرقاء الخشنة) تحمل تعبيرات مثقلة بالغموض والسيربالية « حبيبتى اميمة كانت حزينه وجميلة كموس جسدها فمر ابيض خجول .. تخنق ضحكته الغرف المغفلة برجال ولدوا في ابنية من ذهب » وتذكر هذه الفقرة بشطر غامض من [لويس ماكنيس] « الوجوه الغاضبة لرجال قطفوا بالمقصات وحشروا في المرايا .. » وتذكر « لست دون جوان .. لا املك سيارة ولا بناية شامخة (١) » باليوت في [غزلية ج الفرد بروفروك] « كلا : لست الامر هاملت ، ولم يكتب لي ان اكونه » هذا هو الرفض العادل ، للامنية في منتهى حلاوتها ، انه ليس تمييزا وايضاها لماهية الكاتب او وجوده ، بقدر ما هي فقدان للمزيا التي يحسبها الجيل قدر حياته .. : انا لست دون جوان ، لا املك مزياه ، ورغم ذلك فهانذا احيا واتذب ..

(سهيل الجواد الابيض) تمثل لوحة تجريدية حديثة بالوانها وخطوطها القريبة التي توقعنا في الانبساط ، فما ندرى اهذا اللون الاحمر يمثل وردة فارسية ام هو دم متخثر ام هو مجرد ثورة ! تأملوا هذه الصورة « الانهار القرمزية تنتحب بصمت في حفولي الجرداء » على ان بقية الاستطراد العلمي الذي ينتبه اليه البطل له دلالة اخرى ، فالصور المتتالية تخدم القاع العام تماما : كل صورة تنقض السابقة ، الاولى دعوة الى الحياة ، والثانية شكل منفر يهدم الصورة الاولى ، ويفجر التناقض الحيوي المجهول الاسباب ، ليحسى من جديد هذه الرغبة المجنونة في قض استنار العالم ، ومعرفة الجواب على البؤس الذي يقدم . ان الصور ممتازة لانها تعلن عن عالم الكاتب الاخلاقي الذي يفتيه بالتجريد ، ويرفض فيه الامل على انه متعنة ذهنية محضه ..

في قصة (ابتسم يا وجهها المتعب) يقول : « ماذا سأخسر لو عدت الى العالم ؟ » وذلك منتهى ما يؤدي اليه الفحص الذاتي للعالم من رؤية فردية . ان الدنيا كلها بمخلوقاتنا وجمادها وقوانينها وهيبتها وعظمتها تصبح مجرد شيء يمتلكه الفرد . تصبح الهية : ماذا سأخسر (انا) لو عدت الى العالم .؟؟ والطبيعي ان يطرح السؤال هكذا : ماذا يكسب العالم (مني) لو عدت اليه ؟؟ ولكن ذلك هو جواب المتفائل . الانسان الراضي الذي عقد اتفاقا مع العالم ، او فجر خلافا ، ولكن الكاتب يتخلى عن الخلاف والاتفاق . انه يعلن مجرد الرفض ، الذي يعتبره القيمة الوحيدة بالنسبة له .. في (الخبز والكتابة) مقطع في غاية الغرابة ، فهذا الشخص المغمور ، والذي يجرب كل اللذات ، يستنكر حتى القرف ، عملية شنوذ جنسي، تمت مقدماتها امامه ، فيبصق على الارض بازدرء ، وهذه المظاهرة النفسية تدل على ان المختل عاطفيا ، والذي يوافق على شنوذه هو، يرفض شنوذ الاخر ، وينمي اخلاقيته في هذه اللحظة — متحاشيا ذلك المراقب اليقظ في اعماق نفسه — على اساس ان المواجهة لن تتسم ابدا بين ذاته الشاذة ، وبين ضميره ..

والغريب ان هذا الفنان المريض الذي بصق على شنوذ الرجل الاخر ، يحاول ان يفوي بانعة يانصيب طفلة ، في الصحيفة التالية راسا من نفس القصة ، بالذهاب معه الى البيت « لن اشترى .. لكني سأعطيك خمس ليرات اذا ذهبت معي الى البيت » وهكذا ، يقضى التناقض بين المسلك الذاتي وبين الرقابة الداخلية على

(١) يقارن هذا برغبة جانتسي العنيفة في زاوية سكوت فيتزجيرالد [جانتسي العظيم] حين يشاهد فتاة رائحة تركب عربة جاجوار مع فتى انيق ... ان الرغبة بالحصول على مثل هذه الحياة الرغدة ، هي رمز للاكتواء الناري في داخل الشخصية ، واحساس بالحرقه ازاء ملكية الاخرين الى درجة ان الفتاة والعربية يصحان رمزا للامنية ، لا الامل ذاته ..

سلوك الآخرين ، الى التزييف ، والى اطراح القيم جميعا . ان البطل [يمثل] الاخلاقي ولا يكونه ، لانه فائد للحرية الحقيقية التي تعبره قيما موحدة وغير قابلة للتناقض ..

✱

و - حلم الرومانتيكي ..

كل فنان يحلم بعالم رائع وجميل ومثالي ، الى درجة ان فكرة الغياب بالنسبة له ، ليست انتقالا من ارض الى اخرى ، بقدر ما هي تحول من طبيعة كاملة لاخرى .

منذ ان كتب افلاطون (مدينته الفاضلة) مرت الحضارة بعشرات المدن المشابهة في مخيلات المفكرين والفلاسفة والحالمين ، وقد تطورت هذه المدن - بالتطور المادي والفكري للعالم - من مدن محض اخلاقية، الى مدن تنزع عنها الاخلاق لتتحيا بمآثر الآلة والميكانيكا كما ابرز لنا [هكسلي] في (العالم الطريف) .. الى مدن تحلم بالانسان الفاضل الذي يملك اخلاقه حسب وضعه المادي ، الى مدن خرافية ومستحيلة كيوتويا (توماس مور) ومدينة الشمس (لكامبانيا) . هذه الرغبة الحارقة التي تنتاب الفئة الممتازة من البشر ، وتدفعهم دفعا الى الاحلام والى اقتناص المجهول ، هي رفض سام لهذا الواقع المر الذي يحياه الانسان ، ويتنفسه ، وتطلب راق لعالم اخر يملك من الحب والسلام اكثر مما يملك من عنف ولصوصية ..

وكانت الوسائل لتغيير البشرية قاصرة على المحاضرات والخيال ومنابر الكنائس والخطب المملة لواعظين كاذبين .. وكان اتفه شجار على قرش واحد ، يعطي الدلالة على ان الانسان مهتم في الواقع بسعادته الخاصة اكثر من اهتمامه بالخلود السماوي ..

ومن اجل ذلك حاول الفنان الاكثر حساسية ان يهرب من هذه المحاولة الميؤنة لتغيير الاخر ، باستبدال الكون جميعا ، والفرار الى جزيرة غامضة وبعيدة ..

« فكانني ابعدت دفعة واحدة جبلا شامخة بهيابة ، ومدنا ودبعا وبعارا بلا شواطئ وادغالاً عنراء مغمورة بشمعاع من شمس حمراء غاربة .. »

« آه لا شيء في العالم اجمل من البحر والسفر والتنقل الدائم . الشراع يرفرف وانت تقف مشدود القامة مرفوع الراس تداعب الريح الرطبة خصلات شعرك وتنفذ الى اعماقك رائحة الملح وهدير الموج .. ستضحك بسرور وحشى فكل الاحزان خلفتها وراءك .. وعما قريب ستصل الى مرفأ لم تطاه قدمك من قبل .. »

« ربما عثرت اثناء طوافي على مدينتي التي احلم دوما بامكان وجودها .. مدينة من نوع جديد غريب .. مدينة شغقت الجسوع والكآبة والفجر .. »

انها رغبة فقط . حلم استوائي ، ولكنه بعيد بعد الثريا ، وحتى لو امكن للفنان ان يجد جزيرته هذه ، فلن يكف عن السخط والقلق ، لانه يحمل هذين المنصرين في قلبه ، كما يحمل عزلته معه الى اي مكان ، فيتصور ان العزلة والوحدة مقترنان بغيابه الجسدي عن الآخرين .. ان الفنان لايساوي شيئا اذا كان مرتدا ، فمن هذا الالم الحارق . من هذا الغداء الشيطاني اللهب ، يتفجر اليبوع الانساني الذي يفدى الامل ، ويفذي الاقتران بالآخرين ، ويفذي امكانية تفسير الواقع ، والتعجيل بتطويره ..

والفرار لا يهب النفس ، ولا الآخرين شيئا . قد يستطيع الفرار ان يعطي سكينه النفس لعام او اثنين ، ولكنه لا يمنح ذلك الى الابد .. وعندما ، سوف يرتد الحقد مرويا من ذلك العطش النادر ، والكامن في داخلنا ، ليتضاعف ويصبح حقدن ، احدهما ضد العالم ، والاخر ضد انفسنا ، وذلك عندما نكتشف ان الهرب لم يعطنا شيئا .. واذن ، فالفرار مستحيل - عمليا - ولا بد ان يكون رمز الفرار مطبوعا في قلوب الناس ، كامل وبشارة ..

ان هذه الحركة الرومانتيكية ، تنبئ عن مقدار البؤس السذي يعيشه جيلنا ، ومقدار الالم والحرقه والاسى الذي ينظر بها هذا

الجيل الى ماضيه وحاضره ، بازاء الوجود الباطش للحضارات الغربية . انه موفق غير عادل : هناك تاريخ باكملة يسند ظهور الغرب ويشرفه ، وهنا تاريخ باكملة يقف ضد الجيل الحديث ويحاول الايقاع به : لقد فتح عينيه فلم يجد جسده صغيرا ، امامه فرصة ان يشب قليلا قليلا وان تكبر مداركه بكبر جسمه ، بل وجد فجساءة ان جسده هو جسد رجل كبير ، في حين ان مداركه لم تتعد مدارك الاطفال .. وهكذا كان على هذا الجيل اما ان يعمل جهده المضاعف ليل نهار كيما يلحق بالحضارة ، واما ان يتحول الى العزلة والانهيال ..

وللاسف ، صاحب التيار الثاني ، نزع اوروبية حديثة قام بهسا شبان ساخطون في انكلترا مثل انجوس ويلسون . برنارد ساندرز . كنتزلي اميس ، جون وين ، جون برين ، جون اوسبورن ، بيل هوبكنز ، وحركة سميت في الولايات المتحدة بحركة المتمردين ، وعلى راسها جيمس جونز ، قامت بالهجوم على القيم الازلية للبشر ، وناهضت حتى الموت فيهم المادية الحديثة ، وطالبت ان يكون الفرد معيارا لكل القيم ، وكان ذلك يعني ان على اوروبا ان تعيد النظر في دينها واخلافها وسلطتها وتشريعها .

وجدت حركة العزلة في الشرق العربي هذه التيارات الفكرية جاهزة وملمية لمساعدتها ، فانكفات عليها بدون بحث حتى الرقبة ، وظهر عندنا شباب يفكرون على النحو التالي : ما فائدة الحضارة ؟ ما فائدة الاخلاق ؟ لماذا لا اتزوج اختي ؟ .. وهكذا انقلبت زهرة التاريخ الاوروبي الى فكرنا ، نحن الذين نحتاج جذورا اكثر مما نحتاج الزهور ...

أبسط ملاحظة في تاريخ ظهور هذه الحركات الساخطة في انكلترا وأمريكا .. ثم في المانيا الغربية بعد ذلك ، تؤكد ان الحرب قد زعزعت العقائد في القيم القديمة السلمية عند الانسان الغربي ، بل وزعزعت النظرة الى المسيحية ذاتها ، الى درجة ان هذه الحركات الساخطة يهكن ان تنبئ عن الحاجة الى روحية جديدة ، والعطش الشديد الى قيم اخلاقية فردية ، لانطمس الذات بدعوى النظر الى المجتمع او الدولة .. انها حركة تقاوم الاشتراكية الغربية التي تريد ان تحطم الفرد على اساس العناية بالمجموع ..

اما في شرقنا العربي فما زالت الدجاجة تبيض لنا قيما روحية مجددة ، نفتذي بها كل يوم ، أي ان فقرنا ليس فقرا روحيا على الاطلاق انه فقر حركي . فقرمادي . فقر عمل وارادة وتخطيط وحرية .. ان مطالبنا واضحة ، ولعله وضوح الطالب مايبعد ذهن المثقف العربي عن الالتزام بها ، ويدفع به بعيدا الى مطالب الغربي التي تبدو له معقدة وجلييلة الى الحد الاقصى ..

وها هنا يتسنى لنا ان نراجع الازمة التي وقع فيها زكريا مع ازمة جيله بكاملها ، ونرتي لهذا السقوط في حفرة لم تعد لنا ابدا : انسه يشبه لدي حيوانا نباتيا ، يفريه لحم طري بالاقتراب من الفخ المرصود لحيوان اخر ، فيسقط هو فيه لانه ارعن وطويل الانف ..

ان حضارتنا تشكو من عائقين لا ثالث لهما ، أولهما الدكتاتورية بكامل صورها ، من سياسية الى عقائدية الى تقليدية الى دينية ، والثانية هي حكم الملوك والالهة الاقطاعيين ، وذلك يستتبع ان يكون كفاحنا مركزا في كلمتين اثنتين : الحرية والاشتراكية ..

انا لا ادعو كاتب القصة الى ان يلتزم بالدفاع الحرفي عن هاتين القضيتين ، بل ادعوه الى ان يفحص بمزيد من الوعي ، واقننا العربي وقضايانا الحقيقية على ضوء هذه المسلمة الواضحة . لقد كشف عن وحدتنا وعن عربنا ، وكان صادقا ، ولكن كشفه عن الانسان بازاء الالهة كان كشفا . تنقصه الدقة والاحاطة والصدق ..

ي - الهلع من الموت ..

والى جانب هذه الرغبة بالفرار ، تكمن الحالة المرافقة وهي الرغبة بالانتحار ..

ولو كانت هذه الرغبة حقيقية ، لامكننا ان نعرف الى حقيقة الاسى والالم ، اما والرغبة مزيفة ، والانتحار هوى شكلي محض ، فهذا يؤكد

لدينا ان نصف المأساة فير مدفونة في قلب الكاتب ، وانها في الحقيقة مستوردة تماما ..

ان هناك ما يسمى بالهلع من الموت ، مما ينقض الى حد كبير هذه الدعوة الى الانتحار ، والتي يتبناها الكاتب احيانا : « وامتعت عن التدخين طيلة اسبوع ، واشترت بالنقود التي اقتصدتها موسى نعلها ابيض بارد .. هكذا ساموت .. طعنة واحدة .. ويجب ان تكون قوية شرسة .. في القلب تماما .. وعندئذ سينتهي كل شيء .. » ب - (وجلست على الكرسي المريح ، وأسلمت رأسي الى مسنده ، وراحت الفرشاة الناعمة تتمرغ على وجهي مغطية اياه بطبقة كثيفة من رغوة الصابون ، ثم بدأت الموسيقى الحادة تزحف ببطء فوق الجلد حتى وصلت الى عنقي ؟ وفكرت هلما : حركة فجائية من رأسي الى الامام وتفرس شفرة الموسيقى في حنجرتي التي بلغت في تلك اللحظة منتزعة شهقة فزعمة .. »

النص الاول ، تكبير طفولي في الانتحار ، فمن يمكنه ان يزعم بان هذه النية الساذجة في اقتصاد الفروش لشراء موسى ثم الانتحار بها ، نية عملية وحقيقية ؟ ان المنحصر الحقيقي لايفعل ذلك ابدا . لايفكر ابدا بهذه الكيفية ، انه يلقي بنفسه من الدور الثامن ، او من فوق جسر ، او تحت الترام ، او يشرب سما في التو واللحظة ، ولكنه لايجلس هادئا هكذا ثم يخرج ورقا وقلما مثلا - لاجراء حساب عن كيفية اقتصاد ثمن موسى او مسندس !! هذا تفكير ساذج تماما ، ولكن له دلالة في منتهى الاهمية : ان الرغبة بالانتحار ليست حقيقية ، لان الاسى الصادر عن القلب اسي مزيف ، واكتواء مصدر ..

فلو كانت العذابات التي يحيها البطل حقيقية ، ما صدع رؤوسنا كلاما عن نيته في الانتحار ، وقتل نفسه منذ زمن بعيد .. لاحظوا النص الثاني ، تجدون اروع مثال عن الجزع من الموت . هنا الصورة حقيقية تماما لان الموقف الذي رمز به الكاتب ، موقف نابغ من الداخل ويجسد عذابا أليما ..

انه قلب يملك من الوحشة والندم والياس مايملك الجيل العربي كله، وتبريره الوحيد ، انه من خلال هذا السواد وهذه الحلوة الدكناء تبرز أضواء صغيرة وبسيطة وصريحة ، لنفس ساذجة وعادلة ، تمنى ان يكون البشر في الشرق العربي مالكين للخلل نفسها التي ملكها الغرب مرة ، ثم طارت من يديه في النصف الاخير من القرن العشرين .. وانها لرغبة فينا مشتركة ، وحارة وأصيلية ..

ملاحظات

« الرجل الزنجي » هو الحيوان الاقل نبلا في قلب كل واحد منا ، والاكثر ميلا الى سلوك الغاب ، غير المنحصر ، والحيواني للغاية .. ان الرجل الزنجي لا يمكن ان يموت . انه يخفي احيانا ، ولكنه خالد ابدا . انه موجود حيث توجد الرغبة . انه لايعرف القلق والحييرة والتساؤل ، بل يصرخ ويهتف باستمرار : افعل ذلك .. افعل ذلك .. وان اتفاقا مصطلحيا يقوم هنا بين الرجل الزنجي ، ورجل الالة . ان الزنجي يقول : احترم ارادتي ، وانا اعمل من اجلك ، اما الاخر ، والذي يحمل التوفز كله ، ويلاحظ هذا الصراع الارادي بين جانب فيه وبين العالم ، فهو يختم فلقه بهذا السؤال : « هل مات الرجل الزنجي ؟ » .. ولكن هيهات !!

في « القبو » تجري هذه المحادثة :

- انت القائل ..

- لم افعله .. هل افعل ابي ؟

- كلنا شاهدناك وانت تقتله ..

- اشتقوه ..

- اشتقوه ..

- اشتقوه ..

هذا الحلم هو التطهير الذي سوف يمنحه سلاما جديدا ، وهذا العقاب النفسي الذي عاناه الفنان ، ليس عقابا لجريمة اقترافها ، وهنا الغرابية ، اذ كانت الجريمة مصورة في وعي الفنان ولم تحدث كفعل على الاطلاق : الغرابية ان الفنان يوافق على العقاب ، مع علمه بان له يقترف

شيئا ، تماما مثل « جوزيف . ك . » : انه يتركهم يدبحونه بدون ان يعترض او يقول شيئا ، عالما تماما بان له لم يات ذنبا ..

انها فرط رؤية الغرابية والاستحالة ، وهي على كل حال ، جواب من الاجوبة التي تطرحها الازمة ..

في « ابتسم ياوجهها المتعب » لم يستعمل البطل ، السكن التسي اعطاه له الثري ، في القتل ، لانه لو كان استعمالها ما افصح عن غضبه الذاتي . لقد اصيحت جريمته الخاصة ، وله بعد ذلك حرية استعمال مايتراءى له . بل انه يرفض استعمال السلاح لانها لم تبق ، جريمة الرجل الثري ، وهذه لفظة بارعة وذكية للغاية ..

« رجل من دمشق » حاشدة بالسادية والماسوشية « فقد جعلني اغرق في احلام وتصورات عنيفة قاسية حزينة ولكنها لذبة للغاية » « فلا بد ان موتي سيكون مفاجأة مؤلمة لهم .. فامي ستبكي وتولول .. » وذلك يقابل مأساة « بيتر كيرتن » السادي من دوسلدورف ، والذي كان يتجول في المدينة ، مفكرا بان عليه ان يدمر المدينة كلها بالديناميت ..

هذا الفسق المرضي الذي يبدو بريئا للغاية ، يعني ان ثمة انفصال حدث بين طبيعة المجتمع وحرية الكاتب .. جعلت البطل يكشف هذا الانفصال في صورة سحق للنقيض الذي يؤله ، والواقع الخارجي الذي لايتهم له اشواقه ..

حدث في « الكنز » انفصال اخر من نوع عجيب :

كل شيء مبرر طالما هو يحلم . الواقع صغير وباهظ : فيه الجوع والتشرد والقباحة والقدارة ، الحلم فقط هو غنى العالم واتساعه وروعته ، حيث تصبح كل رغبة مستجابة ، وحيث يضحي كل ألم منفيًا : لا شيء الا الفرح ، ولا يفصل الانسان عن هذا العالم العظيم ، الا ستار غير شفاف مكون من العلاقات المادية الصغيرة التي تربطه بالآخرين ، فلننزع اذن هذه العلاقات ولنلق بها على الارض ، ولنسبح في روعة هذه الانطلاقية السحرية الى قلب ارض لانعرف الحزن او الياس او الموت .

الانفصال الذي تم ، هو انفصال بين ثلاثة عوامل : الاول هو الجسد المطروح بتأثير صدمة سيارة . الثاني هو النفس التي تبحث عن الذهب . الثالث هو المتشرد الذي يقتل ويضاجع ، وفي النهاية يحلم ايضا : « سارجع الى البحر سمكة ضئيلة جميلة الالوان . » هذا الانفصال الثلاثي يعلن عن حاجة الى الارضاء تبطش بها هذه العودة الى الواقع وتسحقها « اذن لن يصنع امرأة من ذهب .. وسيفادر المستشفى قويا كالحصان ... »

بالمأساة .. !!

« قرنفلة للاسفلت المتعب » تنتهي بان يتمنى الكاتب ان ينام مئة سنة .. لا ان يموت ، بل ان ينام ثم يعود ، ليجد ارضه متغيرة ، لكانما قام برحلته الصغيرة الى جزيرة بعيدة ، تسبح فيها أسماك وأشعة ملونة وتيارات هادئة .. ومرجانات تتألق على الشاطئ القرمزي في غسق الشمس .. انها أمنية لاتمائل الفرار ، بل تماثل الرحيل .. انها رغبة عنيفة في رؤية وطنه عظيما ومتألقا ، وعاريا عن العذابات والبؤس الموجودة فيه ، وماخذنا الوحيد على هذه الرغبة ، هي انها تماثل الى حد ، نومة « اهل الكهف » هربا من انقسام العصر عليهم ..

✱

في الخاتمة ، نلاحظ ان القمر هو الشاهد باستمرار ..

هذا المتطفل الحيايدي العجوز ، ذو البسمة الحلوة ، والوجه الرائق ، هو الملاحظ الساكت الذي يفصح عن وعي ومهارة وذكاء نادر ، فلا هو يقترب من البشر بحيث تفشي الامهم ، ولا هو يبعد عنهم كلية فيفقدون بانتعاده الامل والبراءة ، و احيانا اخرى يبقى الكورس الذي يعيد حس المأساة الى الانسان الذي ينسى وحدته بسرعة امام غروب او زرقسة محيط ، او تخبط زورق سكران ..

لعله شاهد يعاني وحدتنا المربعة ، ولكنه شاهد يقظ ومجنون بحب

الانسان ..

محبي الدين محمد

القاهرة